الفصل الرابع

الإصلاح الدينى فى أوربا

تعرضت الكنيسة الكاثوليكية فى القرن السادس عشر لأخطر محنة عرفتها فى تاريخها حيث شهدت انقساما كبيرا بين رجالاتها مما أدى إلى اهتزاز نفوذ الكنيسة الروحى والأخلاقى بين الناس، وتدهور سمعتها، وفقدانها لهيبتها الدينية وظهور مذاهب جديدة مخالفة للمذهب الكاثوليكى بغرض تقويمه، وإصلاح المفاسد التى تردت فيها الكنيسة، وللتحرر من قيودها مما أدى إلى وقوع حروب أهلية طويلة فى أغلب ممالك أوربا الغربية.

وترجع أسباب هذه الانقسام إلى البذخ الذى كان يعيش فيه الباباوات وكبار رجال الدين، وجمعهم بين الصفة الدينية والصفة الدنيوية، والزج بأنفسهم فى غمار الحياة السياسية، ومنافستهم للملوك والأمراء والدوقات فى حياة الترف واللهو وتشييد القصور وجمع المال والسعى وراء المصالح الخاصة دون مراعاة للمبادئ الأخلاقية، فكانت الوظائف الدينية تشترى بالمال بصرف النظر عن مؤهلات الشخص كما كانت العدالة نفسها تشترى بالمال.

وقد زاد الطين بلة تجرؤ أحد الباباوات وهو "كلمنت الخامس" بنقل مقر البابوية من مقرها الأصلى فى روما إلى " أفينون" بفرنسا حيث ظلت هناك حبيسة تحت السيطرة الفرنسية حوالى أثنين وسبعين عاما. ونظرا لأن البابوية كانت تستمد هيبتها من كرسى القديس بطرس فى روما، فقد وجد الأوربيون فى انتقالها إلى فرنسا لطمة لها خصوصا وأن رجالها كانوا محاطين بالنفوذ الفرنسى وأنهم أعلنوا خضوعهم لسلطان فرنسا باختيارهم من بين ١٢٤ كردنالا و ١١٣ فرنسيا وبمنحهم العديد من القروض لملوك فرنسا أثناء حرب المائة عام. مما جعل بعض المؤرخين يطلقون على هذه الفترة أسم فترة " الأسر البابوى".

كل ذلك أدى إلى اهتزاز مركز الباباوية وضياع هيبتها وزعامتها للعالم المسيحى، وزاد الأمر سوءا انقسام كرادلة الكنيسة على أنفسهم فى اختيار الباباوات حتى اصبح الذى يدير شئون العالم المسيحى فى أوربا ثلاثة باباوات أحدهما فى أفينون بفرنسا والآخر فى روما بإيطاليا، والثالث فى بيزا بإيطاليا أيضا.

وقد أخذ كل بابا من هؤلاء يطعن فى رميله، وفى صلاحيته لتولى الكرسى البابوى، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قام بعض الباباوات بإصدار قرار الحرمان ضد الاخر، كل ذلك أدى إلى جعل سلطة الباباوات موضعا للنقاش والجدال بين الناس، وانقلب الأمر إلى قيام صراع بين مؤيدى بابا افينون، ومؤيدى بابا روما وبابا بيزا.

ونظرا لخطورة هذه المشكلة فإن هذا الوضع لم يستمر طويلا حيث انتهى الأمر بحسمها، فصار للباباوية كما كان فى أول الأمر بابا واحد هو " مارتن الخامس" ومقر واحد هو مدينة روما مما أعاد إلى الباباوية وحدتها.

وعلى كل حال فقد دفعت الأوضاع المتردية فى الكنيسة إلى قيام بعض الغيورين على كيان الدين المسيحى بالمناداة بإزالة المفاسد التى يقع تحت تأثيرها رجال الدين، والعكوف على الدراسات الدينية الجادة، وكان من أبرز هؤلاء " سافونا رولا" الذى أبرز مخازى الباباوية بشكل فاضح وطالب بإصلاح أمورها طبقا لتعاليم الانجيل. ومارتن لوثر الذى قام بحركته فى ألمانيا، وساعدته على ذلك الظروف المتردية القائمة هناك، خصوصا وأن أهلها ذاقوا الأمرين من تحكم الباباوات ومظالم رجال الدين وارتكابهم جرائم الرشوة والابتزاز والظلم والإكراه، ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يجمعون الأموال من الأهالى بحجة انفاقها على الاستعدادات الخاصة بشن حروب صليبية على المسلمين، فى حين أنهم كانوا ينفقونها على الملاذ الدنيوية من بذخ وترف ومفاسد. يضاف إلى ذلك أن ابتداع فكرة صكوك الغفران وبيعها لمن يريد التوبة ودخول الجنة من الأهالى بدلا من ذهابه إلى روما للحج وتحمل المشاق[1]، كل ذلك آثار ثائرة المصلح الدينى مارتن لوثر، الذى ترتبط حركة الإصلاح فى المانيا باسمه، وأدى إلى ظهور حركة " جون كلفن" فى فرنسا وسويسرا، وقد قام كل منهم بدور كبير فى الدعوة لإصلاح الكنيسة من مفاسدها والرجوع إلى تعاليم الأنجيل.

ونظرا لدور مارتن لوثر المهم فى قلب موازين الأمور الدينية فى أوربا، وتأسيسه للمذهب البروتستانتى فسنعرض له ولدوره.

---

(1) أصل الفكرة ترجع إلى عام ١٥٠٦ عندما كان البابا بول الثانى بحاجة إلى الأموال لاتمام بناء كنيسة بطرس فى روما ومن هنا فكر فى الحصول على الأموال بواسطة صكوك الغفران التى يمنحها للمؤمنين مقابل ما يدفعونه من أموال تصرف على أعمال البناء ثم اتجرف الباباوات بهذه الفكرة إلى المتاجرة بها بعد انتهاء الغرض الأساسى منها فأصبحت مسألة تجارية بحته.

- **نشأة مارتن لوثر:**

ولد مارتن هانس لوثر بأحدى قرى سكسونيا الألمانية فى عام ١٤٨٣ فى أسرة قروية فقيرة، ويبدو أن فقر أسرته كان له تأثير كبير علىنشأته حيث أنه تربى فى طفولته تربية صارمة وشديدة، وعاش فى ظل حياة قاسية وصعبة انتشرت فيها الخرافات الدينية والمعتقدات الزائفة التى صورت المسيح فى صورة المنتقم الجبار الذى يتوعد الناس بأقصى أنواع العقوبات، فتسلط علىمارتن لوثر القلق النفسى والخوف من ارتكاب الآثام، وخشى أن يختطفه الموت وعليه بعض الذنوب.

وعلى الرغم من فقر والد لوثر، وقلة أمواله فقد أصرت أسرة مارتن على تعليمه، خصوصا وأن والده كان يحلم فى أن يرى ابنه رجلا من رجال القانون ونتيجة لذلك اتجه إلى دراسة القانون ولكنه لم يلبث أن انصرف إلى الدراسات الدينية وانخرط فى سلك الرهبنة عسى أن يكون فى ذلك خلاص من ذنوبه، ودخل فى أحد أديرة القديس "أوغسطين" فى عام ١٥٠٥م أملا فى تطهير نفسه من الخطايا والذنوب والوصول إلى رحمة الله، ونظرا لتفوقه فى الدراسات الدينية واللاهوتية حصل على شهادة جامعية تعادل الدكتوراه وكلف بالتدريس فى جامعة "فتنبرج" وبدأ يتقلد مناصب عديدة برزت خلالها شخصيته، وقوة إيمانه بمذهبه.

وفى عام ١٥١٠م أتيحت الفرصة لمارتن بزيارة روما لمدة شهر، وهناك رأى بنفسه ما عليه رجال الكنيسة من انحلال وفساد وانهيار القيم وتسلط على حياة الناس اليومية، كما رأى ما يقوم به البابا من جمع الأموال مقابل صكوك الغفران التى يدعى بأنها تكفر الذنوب كل ذلك دفعه إلى الثورة على البابا والهجوم على مفاسد الكنيسة، والدعوة إلى المذهب البروتستانتى الذى تتلخص فكرته فى أن الأيمان المطلق برسالة القديس بولس إلى أهل رومية وهى أن " البار بالأيمان يحيا أى " السلام بالأيمان وحده لا بالأعمال" وسميت بعقيدة التبرير بالإيمان، ثم أخذ فى عرض أفكاره حول هذه الرسالة أمامّ تلاميذه مفندا لها بالحج والبراهن القاطعة، ومطالبا بإقامة كنيسة تعود بالدين إلى أصل الكتب المقدسة وتؤسس على مبادئ وتعاليم الإنجيل لا على مطالب رجال الدين فى روما ومناديا بضرورة فهم العامة لأمور دينهم، ورفع سيطرة رجال الدين على ضمائرهم وعقولهم، وداعيا لنشر التعليم المدنى الذى يتيح الفرصة للأفراد لنيل قسط من التعليم بعيدا عن تدخل الكنيسة.

وفى عام ١٥١٧م جاء إلى سكسونيا الخطيب الموهوب الراهب الواعظ الدومينكانى كمندوب عن البابا من أجل بيع صكوك الغفران، مدعيا أنها كافية لتخليص من يشتريها من كل ما ارتكبه من آثام وخطايا وعندئذ وجد لوثر الفرصة المواتية لكشف المهازل التى يرتكبها البابا باسم الكنيسة فأستغل فرصة تجمع الناس عند كنيسة " فيتنبرج" بمناسبة عيد الشهداء، وأعلن استنكاره لعملية بيع صكوك الغفران موضحا أن النجاة من النار والثواب والعقاب لايتم عن طريق شراء صكوك الغفران، وإنما تأتى عن طريق الإيمان بالله وأصر على أن الكتاب المقدس وحده هو دستور المسيحيين.

كما علق لوثر على أبواب هذه الكنيسة القضايا الخمس والتسعين الشهيرة التى تؤكد فساد الكنيسة، وطالب بمناقشة مندوب البابا علانية، كما طالب بالسماح للقساوسة بالزواج وأعلن ان الطلاق أمر شرعى فىْ الكنيسة وأن الغفران رهن برحمة الله، وأنه ليس للبابا وحده حق تفسير الإنجيل، وطالب لوثر البابا أن يعترف بحقيقة هذه الأمور، كما أعلن تأييده للنزعة القومية التى ظهرت فى ألمانيا وطالب رجالاتها بإدارة شئون الكنيسة، وناشد الأمراء الألمان بتزعم حركة الإصلاح الدينى، وقد وافقه العديد من الأمراء على رأيه خصوصا وأنهم كانوا يرون أن سلطان البابا تحد من حريتهم وتصرفاتهم.

وعبثا حاول البابا أن يجعل لوثر يتراجع عن آرائه بل أخذت دعوته تجد صدى لدى الرأى العام الألمانى وساعده على ذلك اختراع الطباعة فى ألمانيا حيث جعل منها لوثر وسيلة لنشر أفكاره خصوصا وأن المجلات والجرائد لم تكن قد عرفت بعد مما سهل توزيع احتجاجه ومجادلته ونقده لتصرفات الكنيسة فى طول البلاد الألمانية وعرضها، ورواج كتبه ومؤلفاته الخاصة بآرائه تجاه الكنيسة. ونتيجة لسخرية كتابات لوثر وطعنها فى الكنيسة فقد أصدر الباب "ليو العاشر" قرار الحرمان ضد لوثر وأعلن حرمانه من رحمة الكنيسة فى ديسمبر ١٥٢٠ إلا أن لوثر لم يعبأ بذلك القرار بل قام بإحراقه علانية أمام الناس فى ساحة "فيتنبرج" ونشر بعد ذلك رسالته الشهيرة عن الأسر البابوى للكنيسة مبينا ضعفها ومفاسدها، كما تهجم على رجال الدين مبينا خداعهم للمسيحيين.

ونتيجة لتدهور الموقف واهتزاز سلطة الكنيسة طلب البابا من شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية تنفيذ قرار الحرمان ضد لوثر وقمع حركته باعتباره مارقا وملحدا وخارجا على التعاليم المسيحية.

ونتيجة لذلك دعا الإمبراطور مارتن لوثر إلى المثول أمام المجلس الامبراطورى لمحاكمته والنظر فى أفكاره ومطالبته بأن يعترف بخطيئته.

وعلى الرغم من خطورة موقف لوثر فقد أصر على آرائه خلال المحاكمة ولم يتراجع عن آرائه أو عن موقفه مما جعله بطلا شعبيا، وجعل أعوانه وأتباعه يتزايدون، وجعل هيئة المحكمة تعده خارجا على القانون، فحكم عليه بإهدار دمه باعتباره هرطقيا، وحرمانه من كافة حقوقه الدينية إلا أن الأمير فردريك أمير مقاطعة سكسونيا وضعه تحت حمايته وجعله يقيم فى قصره، كما التف حوله بعض رجال الدين الساخطين على تصرفات كنيسة روما، وتحكم البابا فيهم مما زاد من شأنه وأضعف القرار الباباوى ضده.

وخلال ذلك وضع أمير سكسونيا مارتن لوثر فى مخبأ بعيد عن الأنظار لمدة سنة كاملة، مما أبعده عن العقوبة وساعد على ذلك انشغال الإمبراطور فى أمور مهمة أخرى منها وقف زحف الأتراك العثمانيين على أوربا، ومحاولاته جمع ممتلكاته المتفرقة تحت رأيه واحدة.

وخلال هذه الفترة قام لوثر بترجمة الإنجيل إلى الألمانية عن النص اليونانى، بأسلوب يتسم بالوضوح وقوة الأسلوب، مما أوقد الروح الوطنية لدى الشعب الألمانى وساعد عامة الناس فى الإطلاع على الكتاب المقدس، وأدى إلى إثراء اللغة الألمانية، وازدهار آدابها.

ونتيجة لذلك استمرت حركة الإصلاح الدينى وبدأت اللوثرية فى اكتساح معظم الطبقات الألمانية وإثارة المعانى الدينية والخلقية القائمة على هدى الكتاب المقدس بين أفرادها. وخلال ذلك رأت بعض الطبقات فى هذه الحركة إصلاحا لأحوالها والحصول على بعض الامتيازات فقامت بالثورات التى كان من أبرزها " ثورة الفرسان" و " حركة الفلاحين".

وعن ثورة الفرسان فقد وجد الفرسان الذين كانوا قد فقدوا الكثير من امتيازاتهم فى الحركة اللوثرية فرصة لاستعادة نفوذهم فهاجموا الكنائس وحطموا ما فيها من صور وتماثيل واستولوا على ما فيها من نفائس ولكن الأمراء استطاعوا القضاء على ثورتهم. وبالنسبة لحركة الفلاحين فنظرا لأن هذه الطبقة كانت تعانى من أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية وكانت حالتهم حالة استرقاق، فقد قامت بثورة انتشرت فى جميع أنحاء ألمانيا بسرعة فائقة، مطالبة بالتخلص من عبودية الأرض وضرورة تحديد الخدمات الإقطاعية المفروضة عليهم، وتخفيف ضريبة العشور الكنيسية، وإلغاء الرقيق والمساواة فى الملكية، والحق فى اختيار

رجل الدين فى كل مجتمع من مجتمعاتهم، وان تنظر هذه المطالب فى ضوء الكتاب المقدس، وأشاروا إلى أن الله خلقهم أحرارا ولذلك يجب أن يبقوا كذلك.

ونتيجة لاستخدام أصحاب هذه الثورات للعنف تحت قناع اللوثرية أضطر مارتن لوثر إلى الظهور من مخبئه ليعلن أن حركته برئية من اتخاذ العنف وسيلة لتحقيق أهدافها، وأنه سيقاوم كل من يلجأ إليه.

ونظرا لأن الإمبراطور شارل الخامس كان مشغولا خلال هذه الفترة بحروبه ضد فرنسا فى إيطاليا، وفى وقف زحف العثمانيين على النمسا والمجر، فإنه لم يتخذ أى موقف صريح ضد اللوثريين.

وإلى جانب ذلك فإنه نظرا للخلافات التى كانت قائمة بين البابا والإمبراطور فى ذلك الوقت انقلب الوضع لصالح لوثر واتباعه حيث اجتمع المجلس الامبراطورى فى " بافاريا" فى يونيو ١٥٢٦ لبحث القرار الصادر بإهدار دم لوثر ومصادرة كتاباته، وأصدر قرارا فى غير صالح الكنيسة الكاثوليكية، وهو أن لكل أمير الحق فى اختيار المذهب الدينى الذى يريده فى إمارته، وبذلك أصبح لأتباع لوثر مذهبا شرعيا معترفا به فانتهزوا هذه الفرصة وتطلعوا إلى الاستئثار بأموال الكنيسة، وقاموا بالاستيلاء على أملاكها فى مقاطعاتهم ، وطرودا اتباع البابا من رجال الدين.

ونظرا لتطور الموقف السياسى بين البابا والإمبراطور هاجمت قوات الإمبراطور روما وأسرت البابا. ونتيجة لانتشار اللوثرية وما تبعه من انقسام خطير هدد الإمبراطورية دعا الإمبراطور إلى عقد المجلس الامبراطورى مرة ثانية، وفيه تراجع عما أصدره من قرارات فى المجلس الأول، فأمر بإلغاء الحرية التى أعطيت للأمراء لاختيار المذهب الذى يريدونه فى ولاياتهم، كما أمر بقمع اللوثرية وإهدار دم لوثر.

ونتيجة لذلك احتج الأمراء اللوثريون لأن هذه القرارات ستحرمهم من الثروة التى هبطت عليهم من استيلائهم على ممتلكات الكنيسة، لذلك قرروا عدم الموافقة على تلك القرارات وسموا أنفسهم بالمحتجين Protestant وهو الاسم الذى يحمله اتباع هذا المذهب حتى اليوم، ونظرا لتدهور الموقف وإمكان حدوث حرب دينية بين المسيحيين فى حين كان الأتراك العثمانيون يحاصرون فينا فى عام ١٥٢٩ فقد حاول الإمبراطور أن يحل المشكلة سلميا وبشكل مؤقت فعقد مجلسا فى "أوجزبرج" عام ١٥٣٠ دعا فيه الأمراء البروتستانت

للاجتماع مع الأمراء الكاثوليك فى محاولة لفض النزاع بينهما، وكان الإمبراطور فى هذا المجلس مترددا وحائرا حيث تمسك كل فريق برأيه ففى حين كان متأثرا برأى رجال الدين الكاثوليك لم يستطع أن يلبى طلبهم بالضرب على أيدى البروتستانت، ولما حاول التقريب بين الطرفين كان البون شاسعا ولم تفلح وسائل اللين مع البروتستانت للرجوع عن أفكارهم ومن هنا رأى البابا أتباع الشدة فأصدر قرارا بتحريم اللوثرية ومعاقبة اتباعها أشد العقاب إذا لم يتراجعوا عن أفكارهم.

ولما تبين البروتستانت مدى الأخطار التى لحقت بهم قرروا الاجتماع فى مدينة "شمالكلد" عام ١٥٣١ وهناك كونوا حلفا أعلنوا فيه أنهم لن يرضخوا للقوة، وسوف يدافعون عن مبادئهم ومصالحهم بكل قوة، وأنه إذا تعرض فريق منهم للعدوان هب الجميع لنصرته.

وقد ناقش المجتمعون كيفية الدفاع عن أنفسهم وقرروا تكوين جيش نظامى يجهز بأحدث الأسلحة. والجدير بالذكر أن هذا الحلف كان بمثابة النواة لنمو البروتستانتية وتدعيمها، فازداد عدد المنضمين لها، وقويت ركائز البروتستانتية، كما أجتمع اللوثريون مرة أخرى فى "شمالكلد" حيث رأوا الاستعانة بملكى فرنسا وإنجلترا المناوئين للإمبراطور.

ولما رأى الإمبراطور عدم جدوى اتخاذ وسائل الشدة مع البروتستانت لم يضع تعليماته باتخاذ القوة معهم موضع التنفيذ خشية قيام حرب أهلية لذلك قرر عقد اجتماع لمناقشة الموقف، وفى أعقابه أصدر قرارات أطلق عليه سلام "نورنبرج" دعا فيه إلى وقف المشاحنات والحروب الأهلية داخل الامبراطورية، وتحقيق السلام وكان ذلك من العوامل الذى زادت من رفع نجم البروتستانت الذين أعلنوا الموافقة على توحيد الصف أمام عدوهم المشترك وهم المسلمون.

وبعد أن استقرت الأمور للإمبراطور، وخفت متاعبه الخارجية وتوقف زحف الأتراك على أوربا قرر الدعوة إلى اجتماع مجلس دينى يجمع بين الكاثوليك والبروتستانت عام ١٥٤٥ ولكن البروتستانت رفضوا قبول هذه الدعوة لاعتقادهم أن الإمبراطور لايقصد إلا مخادعتهم والقضاء عليهم، وهنا قرر الإمبراطور استخدام القوة ضدهم.

وفى هذه الأوقات العصيبة توفى مارتن لوثر فخسر البروتستانت قائدهم الروحى، كما خسروا بعد ذلك المعارك مع القوات الإمبراطورية التى استطاعت الدخول إلى المانيا، واستخدمت وسائل البطش لعدول البروتستانت عن مذهبهم ولكن دون جدوى.

وفى محاولة للتوفيق بين المذهبين حاول الإمبراطور التوصل إلى طريقة ترضى الطرفين، فتوصل إلى نظام أطلق عليه النظام المؤقت والذى بمقتضاه يتم التسامح مع البروتستانت ويكفل رضاءهم كإباحة زواج القسس وطقوس العبادة البروتستانتية ومع ذلك لم ينجح الإمبراطور فى تطبيق هذا النظام حيث رفضه كل من الطرفين مما نتج عنه احتدام الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت، وسارت الأمور فى غير مصلحة الامبراطور، وتزايد حلفاء البروتستانت حتى اضطرت القوات الإمبراطورية إلى مغادرة ألمانيا.

وفى فبراير ١٥٥٥ تم دعوة المجلس الإمبراطورى للاجتماع لتقرير الصلح مع البروتستانت، وفى هذا الاجتماع تقرر إعطاء الحرية لكل أمير أن يختار المذهب الذى يقبله فى إمارته، وعلى الرعايا أن يختاروا أما الموافقة على المذهب الذى يرضاه الأمير أو مغادرة الولاية إلى المناطق التى تدين بالمذهب الذى يرغبونه، كما أتفق على أن تبقى أملاك الكنيسة الكاثوليكية التى أخذها البروتستانت فى أيدى من استولى عليها، وهكذا كان هذا الصلح انتصارا كبيرا للبروتستانتية واستراحت ألمانيا من الحروب الأهلية.

ولم يقتصر الإصلاح على ألمانيا بل انتقل إلى الدنمرك والنرويج والسويد وسويسرا وغيرها.

وهكذا يتضح أن شعوب أوربا " القرن السادس عشر" كانت تشعر بقلق روحى بعد أن رأت باباوات الكنيسة ينغمسون فى ملاذ الدنيا ويبتعدون عن الشئون الدينية مما شجع على ظهور الحركات الدينية الإصلاحية التى اتخذت الطابع الثورى فى كثير من الأحيان والتى نجحت فى أحياء الشعور القومى فى أحيان أخرى.